ارتحال المصطلح الصّوفي من الانبثاق في الشعر الفصيح إلى التداول في الشعر الشعبي -دراسة لنماذج شعرية جزائرية؛ فصحى وعامّية-

The migration of the Sufi term from the emergence in eloquent poetry to usage in popular poetry - A study of Algerian poetic models; Eloquent and dialect -

عامر يحياوي*

جامعة ابن خلدون، تيارت- الجزائر-، ameur.yahiaoui@univ-tiaret.dz

تاريخ الارسال2024/01/01 تاريخ القبول2024/09/25 تاريخ النشر2024/11/01

ملخص:

تُقدّم هذه الورقة البحثية مقاربة مفاهيمية للمصطلح الصّوفي، مع تناول نماذج مصطلحية من حقل التصوّف من خلال مدوّنتين تتمثّلان في الشعر الجزائري بنوعيه؛ الفصيح والعامّي (الشعبي)، مُنطلقة من طرحٍ إشكاليٍّ يَنْبني على تساؤلات حول كيفية توظيف الشّعر الجزائري عموما للمصطلح الصّوفي، وعمّا إذا كان الشّاعر الشّعبي قد استفاد من المصطلح الصّوفي كما كان الشّأن عند نظيره الذي ينسُجُ وفق المنوال اللّغوي الفصيح، كُلّ ذلك يستدعي استحضار واستقراء نماذج شعرية(فصيحة وعامّية) تندرج ضمن حقبة حديثة ومعاصرة، يمكننا من خلالها محاورة التّوظيف المصطلحي لكلا النّصين الّذين ينتميان لحدود اللغة العربية من حيث هي لغة إنتاجٍ مشتركة؛ مع وجود تميّزٍ في نِتاج الشّاعر الشّعبي الذي يتحرّر من نظام اللغة المُعرَبة إلى لغة عامّية متداولة ضمن ما يُعرف بلهجة المجتمع الجزائريّ.

الكلمات المفتاحية: الشّعر الشّعبي، المصطلح ، التصوف، الشّعر الفصيح، المعراج.

Abstract:

This research paper provides a concept of the Sufi term, while dealing with term models from the Sufism field through two blogs represented in Algerian poetry of its types; Eloquent and public (popular), based on a problematic proposal that builds on questions about how Algerian poetry is generally employed for the Sufi term, and if the popular poet has benefited from the Sufi term as the matter was at his counterpart, which is woven according to the eloquent linguistic model, all of this calls for evoking and reciting models Poetic (eloquent and public) falls within a modern and contemporary era, through which we can dialogue with the terminological of both texts which belong to the limits of the Arabic language in terms of it is a common production language; With a distinction in the production of the popular poet, who is free from the system of language to the language to a general language circulating within what is known as the dialect of Algerian society.

Keywords: popular poetry, term , Sufism, eloquent poetry, ascension.

* عامر يحياوي

1. مقدمة:

يزخر تراثنا الشعري بفضاء إبداعيٍّ شمل جميع المستويات اللّسانية، ولعلّ خروج الشّعر في مرحلة تالية إلى منظومة شعبية، عملت على تطويع اللغة الفصحى الكلاسيكية وفق نظام معيّن، اصطلح عليه الباحثون بالشعر الشعبي، لكنّ هذا الشعر بقيّ يمدّ بِبُنوّتِه للشعر الفصيح، والدارسون لهذا الشعر يدركون أنّ الشاعر الشعبي الجزائري بقي وفيا لتقاليد وأعراف الشعر العربي الفصيح بتأثيثه الدلالي ونسقه الأسلوبي، وبناء القصيدة في تمفصلاتها العضوية والموضوعية، حتى أنّه في كثير من الأحيان تُبنى القصيدة الشّعبية على تناصَّات يكون أُسُّها القصيدة العربية الكلاسيكية، والملاحظ أنّ الشعر الجزائري عموما بنوعيه الفصيح والشّعبي ؛ يمتح من التراث الصوفي تيماتٍ طالما شكّلت عمودا لقصائد تنتمي لهذا الشعر أو ذاك، وفي هذا السياق تحاول هذه الدراسة التركيز على المصطلح الصوفي في الشعر الجزائري فصيحا وشعبيا، محاولة الخَلُوص إلى مدى احتفاء كلّ منهما بالموروث الصّوفي والاقتدار في هذا التّساوق على استثمار ذلك ضمن المتن الشعري في عملية إبداعية لا تخلو من مظاهر الذّوق، ومعراج الإبداع حاملة الرّسالة الشعرية من طابع التَّذْويت إلى طابع الفناء في تجربة كونية. ومن هنا تغدو مشروعية السّؤال والتّساؤل ذات أهمية يمكن تجليتها في :

ما مدى احتفاء الشعر الجزائري بنوعيه (الفصيح والشّعبي- العامّي-) بالمصطلح الصوفي؟ وهل أثّر ذلك في العملية الإبداعية؟ وما دلالة هذا التوظيف؟.

2. المصطلح الصوفي:

1.2 . مصطلح التصوّف واللغة:

إنّ المصطلح عمادُ كلِّ علم، ومفتاح كلّ فنّ، وقد كان للقدامى موقفهم في قضية المصطلح؛ فقد جاء في كتاب صبح الأعشى" أنّ معرفة المصطلح هي اللازم المحتّم. والمهمّ المقدّم. لعموم الحاجة إليه، واقتصار القاصر عليه.

إن الصّنيعة لا تكون صنيعة ... حتّى يصاب بها طريق المصنع"[1]

ويعرّفه الشريف الجرجاني على أنّه" عبارةٌ عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول"[2]، وهذا ما يتأسس عليه المصطلح من خلال الحقل المعرفي الذي ينتمي إليه، ويمكن تلخيص التصوّر المصطلحي عموما في المدوّنة التراثية في النقاط الآتية:

- "اتفاق العلماء عليه للدلالة على معنى من المعاني العلميّة.
- اختلاف دلالته الجديدة عن دلالته اللغوية الأولى
- وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة بين مدلوله الجديد ومدلوله اللغوي العام
- الاكتفاء بلفظة واحدة للدلالة على معنى علميّ واحد"[3]

لكنّ بعد تقديم مفهوم المصطلح من حيث هو آلة لتصوّر الحقل العلمي نفسه نطرح تساؤلات حول المصطلح الصوفي الذي يغدو نابعا من لغة لا تشبه اللغة العادية التي يحاول كل علم وفنّ ممارستها، وقد عبّر عن

ذلك حسن الشرقاوي بقوله: « والاختلاف الوحيد بين ألفاظ الصّوفية ومصطلحاتهم وبين ألفاظ ومصطلحات أصحاب العلوم الأخرى، هي أنّ هذه الألفاظ لا تُعرَف عن طريق منطق العقل والنّظر بقدر ما تُفهم عن طريق الذّوق والكشف، ولا يتأتّى ذلك إلاّ لسالك يُداوم على مخالفة الأهواء، وتجنّب الآثام، والبُعد عن الشّهوات، وإخلاص العبادات، والسّير في طريق الله بالرّياضات والمجاهدات في الطّاعات حتى تتكشّف لهذا المُريد الصّادق غوامِضَها، وتتجلّى له معانيها، ...»[4].

ولعلّ غموض المصطلح عند المتصوّفة هو مبنيٌّ على نسق اللّغة التي يتداولها أهل التصوّف، فهي لغة مرمُوزة تقف على أفق التأويل اللاّمتناهي، وفي هذا السياق فإنّ هُوّية الخطاب تحدّد اللّغة القائم عليها هذا الأخير، وبالتالي فإنّ الخطاب الصوفي تَنْماز لغته بميزة تطبعها المنطلقات والمرجعيات الصوفية، وقد لاحظ شريف هزاع شريف في تحليله كتاب الطواسين للحلاّج أنّ لغة المتصوّفة يمكن استقراؤها في ثلاثة أشكال، وهي:

- الشكل الأول: لغته وُجّهت للعامة، قابلة للفهم المباشر ولا تحتاج إلى إطار مرجعي للعواطف، ونجدها في مؤلّفات المكي والكيلاني والغزالي والنقشبندي...
- الشكل الثاني: لغة موجّهة للتلاميذ والمريدين، وهي غير مباشرة قابلة للفهم من خلال التأويل، أي بعد إرجاعها إلى المعنى المتضمّن في الإشارة والعبارة الصوفية، وهذا الشكل يضمّ مصطلحات وجملا تحتاج إلى شرح لكي يتكامل المعنى من فضاء النص، ونجد هذه اللغة عند الحلاّج ، النّفري، ابن عربي، ابن سبعين، ...
- الشكل الثالث: وهو إرسال متميّز حيث اللغة غير مفهومة، وأسلوب ملغز غير قابل للفهم ولا للتأويل، وقد تكون الجملة الصوفية فيه على صيغة اللفظ المعجم، أو لفظ عربيّ غير مفهوم، ومثال ذلك ما أورده الحلاج في " الطواسين" قائلا:

مراضه محيل ممصمص، مغابصه فعيل رميص

شراهمه برهمية، ضواريه مخيله، عماياه فطهمية[5]

والظاهر أنّ هذه اللغة في أشكالها الثلاثة لا تتساوى في الانتشار من خلال المدونة الصوفية التراثية، وهذا ما عبّر عنه شارفي عبد القادر؛ إذ يقول:« تماشيا مع هذه الفرضية ، فإنّنا نجد الشكل الثاني هو المعبّر الفعلي عن اللغة الصّوفية، لكونها الشائعة في مصنّفاتهم وأقوالهم، وكذلك لكونها تعكس هدف التواصل بين المرسل والمتلقي، إضافة إلى ذلك تميّزها بالجانب الإبداعي من حيث المفاهيم والتصورات والمتجلّية بالخصوص في المصطلح الصوفي، أمّا الشّكل الثالث وإن كان موجودا في بعض أقوال الصوفية، فهو غير واسع الانتشار ولا يحقق عملية التواصل لعدم قدرة المتلقّي على فهمه أو تأويله لافتقاره للمرجعية الخطابية التي يقوم عليها نظام التواصل في اللسان العربي»[6].

ومن ثمّ فإنّ المصطلح الصوفي هيّأت له لغة خاصّة مدلولاته، وحمّلته شُحناتٍ دلاليّة لا يمكن فهمها إلا عن طريق تَسْييقها ضمن دائرة الحقل الصوفي الّتي تضيف في أحايين كثيرة، بسبب تكثيف دلالاتها.

2.2 مصادر الاصطلاح الصّوفي:

يمتحُ المصطلح الصوفي بنيته ومدلولاته من مصادر أهمها:

- القرآن الكريم
- السنّة النبوية المطهرة
- مدونات التصوّف من اللطائف والإشارات ...

ولعلّ من جملة ما اشتهر في مجال الاحتفاء بالمصطلح الصوفي من خلال المدونة الصوفية في التراث هي:

- الفتوحات المكّية لمحيي الدين بن عربي (ت638هـ)
- الرسالة القشيرية لعبد الكريم بن هوزن القشيري (465هـ)
- اللّمع في التصوّف لأبي نصر الطوسي (ت378هـ)
- إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسني (ت1224هـ)

فالمتصوّفة لم يكونوا بِدْعا عن الفِرق الإسلامية الأخرى في لحظة وعْيِهِم الدّيني والحضاري بالنّسق الخطابي المُتمثِّل في القرآن والسّنّة، والميراث الفقهي والأصولي للمسلمين، وعلى ذلك يجدُ النّاظر في هذه المصطلحات "أغلبها مأخوذٌ من نصوص القرآن الكريم والسّنة النّبوية الشّريفة؛ وذلك من قبيل: الشريعة، والطّريقة، والحقيقة، والذّكر، والنّفس، والقلب، والرّوح، والسِّر، والخاطر، والحال، والمقام، والقبض، والبسط، والذّوق، والتجلّي...الخ. غير أنّ هذه المصطلحات منها ما بقي على أصله، ومنها ما تغيرت دلالته بحسب التّجربة الرّوحية التي يحياها الصّوفي. وهذا الأمر ليس مُستجدّا إذا ما علمنا أنّ النّبي ρ – باعتباره المبيّن لكلام الله تعالى – قد كشف عن كثير من المعاني الخفية لألفاظ القرآن الكريم، كما أنّ الصّحابة والتّابعين قد نقل عنهم من الأخبار ما يدلّ على أنّهم عرفوا هذه المعاني وأخذوا بمقتضاها"[7].

والملاحظ للمصطلح الصوفي أنّ التجربة الصوفية تنضجه مع السيرورة الزمنية، فها هو ابن عربي يصرّح برمزية لغته وخصوصية ما ينطق به في قالب إشاري:

إذا نطقوا أعجزك مرمى رموزهم..... وإن سكتوا هيهات منك اتّصاله[8]

والحقيقة أنّ تيار التصوّف يحاول أن يؤصّل لفكره من خلال الرّجوع للكتاب والسّنة باعتبارهما مصدرا رئيسا في بناء نسق السلوك الصّوفي، وهو يندرج ضمن تزكية النّفس، وتحقيق المقام مصداقا لقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ ﴿الشّمس: 09﴾ ، "فالخطاب الصوفي هو تفاعل بين ذات الصوفي والقرآن الكريم من خلال تجربة

سلوكية خاصة تعتمد أساسا على التخلق بأخلاق القرآن الكريم الذي هو شامل لحقائق الإنسان وحقائق العالم، وعندما يتحقق الصوفي، عبر تجربته، باستكناه حقيقة ذاته، فإنه في الوقت نفسه يفهم كلمات القرآن وكلمات العالم، فتغدو مظاهر الكلمات جميعها إشارات ورموزا هي خطاب الحق إلى الإنسان الذي عليه أن يتبين معانيها ومقاصدها عن طريق اتباع أوامر الكتاب المنزل والتحلي بآدابه، في سبيل القرب من المتكلم الأسمى سبحانه، وهذه هي طريق العرفان الذي هو حضور كلي ومتجدد داخل الشبكة الإشارية لكلمات الله في قرآنه وفي أكوانه"[9].

3 المصطلح الصّوفي في الشّعر الجزائري الفصيح:

حوالنا من خلال هذا المبحث رصد أهمّ المصطلحات التي دارت في فلك النّص الشعري الجزائري، ومن أهم هذه المصطلحات التي نحاول التأصيل لها:

- **المعراج:** يأتي مصطلح المعراج في التراث الصوفي بالحدّ الدلالي المترامي، فـ" العروج نوعان: نوع على صراط الرحمن، من عرج على هذا الصراط المستقيم إلى أن بلغ من الفكر نقطة مركزه العظيم، وجال في سطح خطّه القويم ظفر بالتجلّي المصون بالدّرّ المكنون في الكتاب المكنون الذي لا يمسّه إلّا المطهرون، وذلك اسم أدغم بين الكاف والنون مسماه إنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، وسلّم المعراج إلى هذه الدقيقة هي من الشريعة والحقيقة وأمّا النوع الآخر فهو السّحر الأحمر المودع في الخيال والتصوير المستور في الحقّ بحجب الباطل، والتزوير هو معراج الخسران وصراط الشيطان إلى مستوى الخذلان كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، فينقلب النور نارا والقرار بوارا"[10].

ولعل هذا التكريس الدلالي لمصطلح المعراج وتسييقه في المعجم الصوفي ينبع من الفهم الإشاري له في الخطاب القرآني: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ٢﴾ ﴿سَبَإ : 02﴾، وما نتج من فهم لسورة الإسراء التي دارت معانيها في فلك حادثة الإسراء والمعراج، وما حدث للنبي صلى الله عليه وسلّم في تلك اللّيلة، لتكون بذلك شهادة من ربّه على إمامته، وقربه من الملإ الأعلى، يقول تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١﴾ ﴿الإسْرَاء : 01﴾

وقد جاء مصطلح المعراج في النص الشعري الجزائري يتأثث بالمدلولات الصّوفية، ليستثمره الشُّعراء في بناء النّص الشعري، يقول ياسين بن عبيد:

تُطارِدني شمسُ الغِواية بكرة *****فأهْفُو عَشيا للضحى أرتوي عُجْبا

وأعرُجُ حيثُ الماءُ نارُ أهِلّتي*** وحيثُ قِبَابُ الرّيح تخترق الحُجبا[11]**

ومن الشعراء الجزائريين الذين احتفوا بلفظة المعراج في سياق التوحّد بينه وبين محبوبه؛ الشاعر عبد الله حمّادي يقول:

يمنحني التجديف بمِسْرجَةٍ

من نور الطُّور

في سِفر الأحبار

يمنحني الغيبة في القبلة

في المعراج

في كهف الأبرار[12]

فالمعراج مصطلحٌ صيّرته الثقافة الصّوفية حالة من الترقّي والصّفاء، ينتشيها المريد بروحه، وينبعث بعدها الواصل في سلّم الطريقة الرّبّانية، وغير بعيدٍ عن هذه المعاني والدّلالات نرى أنّ الشاعر الجزائري المعاصر رَكَنَ إلى تلك المعاني يَفْتَقُها في قالبٍ شعريٍّ، ما يلبثُ يُحدِثُ دفقا يجعل من النّصّ يشهدُ كسرا للنمطية اللّغوية.

– **المقام**: عند أهل التصوّف" ما يتحقّق به العبد بمنازلته من الآداب؛ مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلّب، ومقاساة تكلّف"[13]، وهذا المصطلح شهد حضورا في الشّعر الجزائري المعاصر، سواء في عتبة العنونة كما حصل مع الشاعر عبد الله العشّي وديوانه" مقام البوح"، أو في المتن الشعري، ومن أمثلته:

قول ياسين بن عبيد في ديوانه الوهج العذري:

"صِلْ فؤادي واسْقِه عذْبا زلالا** فكّ عنه قيده وانْسَ الدّلالا**

.....

لاتسلْ عنه النّدامى

أين يختار المقاما

ليقول مستهاما: ياملاكي! "[14]

فالشّاعر لم ينكفئ في مقام الشهادة، بل راح يبحث عن مقامات لا تحصُل للعبد إلا بوصل المحبوب، فاختيار المقام لا بدّ له من طريق سالكٍ، يتأتّى لأهل الحقّ، وتعلّق الفؤاد الذي اقترن بفعل" صل" عند الشّاعر، فكان شرط اختيار المقام هو تحقّق فعل الوصال. وهي صورة من صور الذّوق المبنية على المجاهدة عند الصّوفي، ولا شكّ أنّ هذه المعاني لم تتولّد عند الشّاعر حتى عاش تجربة صوفية انبثق عنها هذا النّص الشّعريّ.

- **الحال:** يذكر مصطلح الحال مع المقام، وأهل التصوّف " يفرّقون بين الأحوال والمقامات فيرون أنّ الأحوال مواهب والمقامات مكاسب، ومعنى ذلك أن كلّ ما يرِدُ على القلب من غير اكتساب هو من الأحوال، أمّا المقامات فيصل إليها السالك بالصّبر والمجاهدة، بل بالجوع والزهد والورع والقناعة، والرّضا والتوكّل وإسقاط التدبير وغيرها"[15]، وقد وُظِّف مصطلح الحال في الشّعر الجزائري المعاصر، ومن النماذج الشعرية في هذا الشأن ما جاء في ديوان أسرار الغربة:

تواثبَ الرّفض ..طوفانٌ من الغضبِ

يا غُربة الحال في أبعادِ مُغترِبِ[16]

فالشّاعر مصطفى الغماري يلتحفُ بمعانٍ صوفيّة، جعلت من الحال عنده مقيّدا بغربةٍ، يعيشها- الشّاعر- في دواخله تؤول إلى اغترابٍ، وهذا نوعٌ من توحّد الروح مع ذاتها، تحوّلَ إلى تصويرٍ شعريٍّ يُسعِف الشّاعر في التّعبير عن تجربته.

ويطالعنا عبد الله حمادي في قصيدته " تباعدات جلال الدّين الرومي" بتوظيفه لمصطلح الحال مضافا إلى اللّسان، في خضمّ زخمٍ مُعجميّ صوفيّ، تعاضَد مع ذلك المصطلح مُنتِجا صورةً صوفيّةً تنبجِسُ عنها صورة شعرية في جوٍّ شعريٍّ ينبضُ بنفحات صوفيّة، تدلّ على أنّ الشاعر يستحضر المعرفة الصوفية في نسج منواله الشعري، والنص الآتي من القصيدة المذكورة آنفا شاهدٌ على تلك الشعرية الصوفية، يقول:

"هل من دُوارٍ يثير النَّبض في شفتي

أو من خلاصٍ يهزّ أغنيتي

مازلت أكتب للأقمار من سفر

دامي التسرّي مع أنوار أشرعتي

عاينْت منه لسان الحال في شفتي

مثل التباري على أقباس أسئلتي"[17]

فالملاحظ في هذا النّص استعمال الشاعر لحقل دلاليّ صوفيٍّ (أنوار، عاينْت، لسان الحال، أقباس، ...) ينمّ عن استيعابه للنسق المعرفي الصّوفي، ومن ثمّ إعادة ترجيعه في وسْمٍ يطبع نصّه الشّعريَّ، فيعبرُ به من لسان المقال إلى لسان الحال الذي يتحقّق بالمعاينة والمشاهدة، لتنكشف له حُجُبُ الحقيقة، فالنّص الشّعري لم يكن ليولدَ لولا تحقّق تجربة الذوق من لدن الشّاعر.

– **الحضرة:** لم يوجد لمصطلح الحضرة تعريف واحدٌ، غير أنّ ابن عربي يعرّفها على أنّها" كلُّ حقيقة من الحقائق الإلهية أو الكونية، مع جميع مظاهرها في كل العوالم تشكّل حضرة"[18]، وقد تداول هذا المصطلح شعراء جزائريون معاصرون، منهم الشاعر فاتح علاق، حيث يقول:

"الق عينيك خلفك وادخل عيوني

واخلع فؤادك إمّا أردت الطواف

وانزع نفسك في حضوري" [19].

هذا النّص يَشِي بتلك التّقاطعات الرّوحية التي عاشها الشّاعر في سياق تجربته، التي تخلّقت لحظة تواشج أفقٍ قرآنيٍّ تملؤه معاني الآية الكريمة﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ ، ليكون في حضرة إلهية تطرحُ عنه كلّ شُغْلٍ دُنيويّ سوى ما تعلّق به فؤادُهُ، فهي لحظة فناءٍ لذات الشّاعر ولغته مع ذكر المحبوب، فأفعال الأمر (القِ، اخلعْ، انزعْ) هي أفعال تصدُرُ عن تماهٍ بين المحبّ ومحبوبه، وتجعله يستأثر به، فلا ينصرِف عنه، وهذا ما عبّرت عنه تلك الأفعال.

ثالثا– المصطلح الصّوفي في الشعر الشعبي الصوفي الجزائري:

يحمل النص الشّعري الشّعبي الجزائري دلالات دينية، ومعجما يصبّ في هذا السياق، وذلك لاعتبارات تاريخية وثقافية...، فالشّاعر الشّعبي الجزائري هو ابن بيئته، يوظّف الشّعر لأغراض تخدُم الغايات الاجتماعية والثقافية والدينية والوطنية كما حدث مع الثّورة ضدّ الاستدمار الفرنسي، وقد حاولنا من خلال موضوع البحث رصد بعضٍ من المصطلحات الصّوفية، وكيفية توظيفها ضمن إطار القصيدة الشّعبية الجزائرية.

– **مصطلح التوسّل وما يدور في مدلولاته:**

يُهيمن هذا المصطلح وما يحمل دلالاته سواء عبر التعريض أو التضمين على النّص الشعري الشعبي الجزائري، ومن أمثلة ذلك التوسّل بسور القرآن الكريم، وهذا ما نجده عند الشاعر ابن حرمة:

طلبتك بالله بالقرآن**** بحرمة الستّين اللي في سوارو**

لا تحرقنا بصهد النّيران*** بجاه محمد والعشرة انصارو**

بسم الله والفتيحة*** بحرمة البقرة ذنبي يتمحى**

بآل عمران واللي يوحي*** بالنساء داوي قلبي من اسقامو**[20]

والتوسّل يدخل ضمن ما "يؤمن به الصّوفية الذين يتوسّلون بالله تعالى وبأنبيائه ورسله وأوليائه الصالحين وصالحات الأعمال، والتوسّل هو التقرّب إلى الله تعالى كأنّه يتوسّل بجاه الرسول صلى الله عليه وسلم، أي يتوسّل به إليه تعالى للتقرّب من نيل ثوابه، أومن فعل طاعة، أو ترك معصية، والوسيلة هي القربة أو المنزلة، أو الدرجة"[21].

وفي معرض شعريّ آخر من الشعر الشعبي نجد الشاعر أحمد ابن معطار يتوسّل بالأنبياء اتّكاء على الخطاب القرآني، يقول:

لا إله غيرك معبود*** يا ذا الفضل يا ذا الجود**

أي خالق كل موجود** اللي لا مثلك شبيه**

فرّج عنّي ياقدير ** سلّك عنّي ديْن كْثير**

مسّلّك يوسف من بير***كل عسر عند سْهيل**

بدّل العسر باليسر***كل خير يجيني يجري**

برد اللي يريد مكري*** مبرد نار الخليل**

يا إلهي ربّي العالي*** جود عنّي واصلح حالي**

أنت شفيت اللي مبتالي***كي أيوب النّبي الفضيل**

أي مولاي يا دايم**** اللي بكلش قايم**

اللي تبت على آدم*** توب عنّي قبل الرّحيل**[22]

وعن التوسّل بالرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وجاهه نجد أنّ الشعر الشعبي يحتفي بذلك كثيرا، وإن كانت تيمة القصيدة الشعبية تشي بدلالات غير الدّلالات الدينية، بل أصبحت الصلاة ρ من التقليد المتعارف عليه بين الشعراء الشعبيين الجزائريين، فها هو الشاعر الشعبي فضيلي احميدة يمجّد مناسبة الاستقلال في يوم 05 جويلية 1962م، فقام مرحّبا بهذا التاريخ:

ابْدمّ الشهداء اصّور هذا فيه*** يرحمهم ربي غدا في داروا**

ابجاه الرسول طه وأهليه*** في الجنة الخضرة يكونو بجوارو**[23]

وفي صورة تندرج ضمن التوسّل ببركة الرسول والأولياء برتبهم وأسمائهم عند المتصوّفة، يقول الشاعر محمد بيطار:

يا بركة الأربعين واللي بُودلا*** الغوث والأقطاب أربعة والرّسول**

فصيغ التوسّل تختلف من قصيدة لقصيدة وتكون عادة (بالجاه وبالطلب، وبلفظ التوسّل،....)

– مصطلحات التسليم/ التوكّل/ اليقين/ :

إنّ التسليم من حيث هو معتقد، وركيزة في تصوّر علاقة الإنسان المسلم بربّه، فهو ذلك الراضي والمسلّم لقضاء الله مهما كان، وقد جرت مصطلحات التسليم والتوكّل واليقين في مقامات تتبع بعضها عن أهل التصوّف،

ورد في الرسالة القشيرية أنّ " التوكّل محلّه القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكّل بالقلب، بعد ما تحقّق العبد أنّ التّقدير من قبل الله تعالى؛ فإن تعسّر شيء فبتقديره، وإن اتفق شيء فبتيسيره"[24]، يقول الشاعر ابن معطار:

ياربي يا خالقنا ياربي ** يا رزاق الكلّ العاقل والحيوان**

يارزّاق الحوت في مياه البحر*** متكفّل بالرّزق في السّابق مِضمَان[25]**

فالتّسليم والتوكّل على الله من الموضوعات التي صارت لازمة من لوازم الشّعر الشّعبي، والنّموذج المقدّم يعطينا صورة عن ذلك، فالنّداء صريحٌ من الشّاعر للخالق جلّ وعلا، افتتاحا لطلبٍ ما، وإقرارا من الشّاعر بقدرة الله عزّ وجلّ على رزق كلّ كائن، عاقلٍ أو غير عاقل، حيثما كان وأينما وُجِد، فرزقه مكفول من لدن الرّزاق، وهذا منوالٌ في التسليم بقدرته جلّ وعلا، وذكر صفاته تنزيها له عن الشّرك، ونعته بصفاته التي وصف ذاته بها.

– مصطلح الحقيقة والشريعة:

يظهر أنّ مصطلح الحقيقة والشّريعة من المصطلحات التي دارت في ثنايا المدوّنة الصوفية التراثية، وقد رأى الصّوفية " أنّ هناك رابطة وثيقة بين الحقيقة والشريعة، ويقولون إنّه لا حقيقة بلا شريعة، ولا شريعة بلا حقيقة، وهذا ما ورد عن الشيخ محيي الدين ابن عربي الذي يقول: إنّ كلّ علم عن طريق الكشف والالقاء يأتي بحقيقة تخالف شريعة متوافرة ، فإنّ ذلك العلم وهذا الكشف لا يعوّل عليه، أمّا إذا كان علم حقيقةٍ يوافق شريعة فهو صحيح، فإذا ردّته الشّريعة، فلا يعوّل عليه"[26]، فالشّريعة والحقيقة مصطلحان متلازمان، لا يتضادّان بالضّرورة، وإن حصل فإنّ ذلك يُعدُّ خروجا عن حقيقة التصوّف، وقد جاء في هذا السّياق الصّوفي ما يؤيّده في شاهد شعريٍّ شعبي ، يقول ابن معطار في مدحه لزينب الهاملية ابنة الشيخ محمد أبي القاسم:

زينب ويا السامعه *** تعبد في الله طايعة**

بالحقيقة والشريعة** تسعى في الخير سْريعةْ**

بِنت الغوث الجَامْعةْ*** من يهرب ليه مانعةْ[27]**

يقدّم لنا هذا النّموذج الشّعري مدحا لإحدى الشّيْخات الصّوفيات، التّي عاشت في القرن التاسع عشر، وعُرِفت بصلاحها، فهي سليلة شيخ من مشايخ الطريقة الرّحمانية بالهامل؛ الشّيخ محمد أبو القاسم، والشّاهدُ في ذلك هو تصوّفها النّابع من تكاملٍ بين الشّريعة والحقيقة، الذي جعلها في نظر الشّاعر الشّعبي ابن معطار مستأهلة للمدح والثّناء، وكيف لا تكون، وهي ابنة الغوث المعروف كما جاء في نصّه الشّعريّ.

4. خاتمة:

لقد كان للتصوّف كتيّار فكريّ دينيّ أثره في الحياة العامّة للمسلمين، لا سيما الإنتاج الشعري الذي احتفى بمبادئ التصوّف ومصطلحاته، إذْ كان للشعراء وقفات معه، بل كان من شيوخ التصوّف ومُريدِيه من هو شاعرٌ له نِتاجُه الشّعري، ولا أدلّ على ذلك من نِتاج ابن الفارض والشيخ ابن عربي و أبي مدين الغوث... وغيرهم، فقد كانوا متصوّفة شربوا من كاسات الذوق، وتناهت مواجيدهم إلى العروج في بحار أنوار المعاني الشعرية، فحصل لهم الوصول، وكُشف لهم من أسرار البيان، وتساوقت لهم الألفاظُ في مقامات استحضار الجِنان، فتاهت الدلالات بين الجمال و الجلال، وعلى هذه الأقدار انْسَلّ الشّعر الشّعبي ذو النّزعة الصّوفية يبني خطابه الشّعري على إثرِ مناويل الشّعر الفصيح الذي يمدّ له أواصر العلاقة الفكرية والاصطلاحية والفنّية مع مراعاة لغة عامّية، ناشئة عن مُغايرة وتطوّرٍ له مساقاته التّاريخية والثقافية والحضارية، ليعبّرَ الشعراء الشّعبيون الجزائريون عن معاني التصوّف في قوالب لفظية تحكُمُها سياقات فنّية وسياقية.

وممّا يمكن إجماله في نقاط كمحصّلة للبحث:

- اعتبارُ الشّعر الفصيح؛ لا سيما التراثي مرجعية في بناء المعجم الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر فصيحه وعامّييه (الشّعبي).
- من خلال الاطّلاع على تراجم وسير بعضٍ من الشعراء الشعبيين الصّوفيين يُلحظ أنّ أغلبهم كانوا من مريدي الطرّق الصّوفية المعروفة في الجزائر سواء قبل الثورة أو أثناءها أو بعدها.
- المصطلح الصّوفي في الشّعر الشّعبي الجزائري مصدره الخطاب الدّينيّ وكذا المدوّنة التراثية الصّوفية التي يتناقلها أهلُ التصوّف عن بعضهم.
- يكرّسُ النصّ الشعري الشعبي الجزائري قيم الإنسانية ويستحضر تهذيب السلوك وتزكية النفس.
- من المصطلحات التي صارت عُرفا فنّيا في الشعر الشعبي الجزائري الحديث مصطلح التوسّل وما يسلك مسلكه من مصطلحات ضمنية، وهذا ما نلحظه في مطالع القصائد الشعبية أو خواتيمها على اختلاف موضوعاتها.

5- الهوامش:

[1] القلقشندي أحمد بن علي (ت 821هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص31.

[2] الشريف محمد بن علي الجرجاني(ت816هـ) : التعريفات، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1983م، ص28.

[3] أحمد مطلوب: معجم النقد العربي القديم، ج1، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، العراق، 1989م،ص10-11.

[4] حسن الشرقاوي: معجم ألفاظ الصّوفية، ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر، 1987م، ص7.

[5] شارفي عبد القادر: لغة الخطاب الصّوفي الإشارة والرمز لدى محيي الدين بن عربي، من الكتاب الجماعي اللغة والمعنى مقاربات في فلسفة اللغة، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2010م، ص84.

[6] شارفي عبد القادر: نفسه، ص85.

[7] عبد الكريم السوني: المصطلح الصوفي: أصول وتجليات، مقال من صفحة الرابطة المحمّدية للعلماء. على الرابط : https://www.arrabita.ma/ يوم 2023/11/17م على الساعة 18:42.

[8] شارفي عبد القادر: نفسه، ص88.

[9] عبد الكريم السوني: المصطلح الصوفي: أصول وتجليات، مقال من صفحة الرابطة المحمّدية للعلماء. على الرابط : https://www.arrabita.ma/ يوم 2023/11/17م على الساعة 18:42.

[10] التهانوي محمد بن علي (ت 1158هـ): موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم،ج2، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، بيروت،1996م،ص1286.

[11] ياسين بن عبيد: ديوان حدائق المعنى: دار الاوطان، الجزائر، دت، ص14.

[12] المقطوعة مأخوذة من ديوان " البرزخ والسكين" لعبد الله حمادي، ينظر أحمد بقار: الرمز الصوفي عند عبد الله حمادي، مجلة علوم اللغة العربية، ع6، كلية الآداب واللغات، جامعة الوادي، الجزائر، 2014، ص 241.

[13] القشيري أبو القاسم (ت465هـ): الرسالة القشيرية، مطابع مؤسسة دار الشعب، مصر، 1989م،ص132.

[14] ياسين بن عبيد: ديوان الوهج العذري، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1995م، ص53.

[15] حسن الشرقاوي: المرجع السابق، ص 115.

[16] مصطفى الغماري: ديوان أسرار الغربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1982م، ص149.

[17] عبد الله حمادي: ديوان تخرب العشق يا ليلى، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1982م، ص165.

[18] سعاد الحكيم: المعجم الصوفي، درندرة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1981م، ص323.

[19] فاتح علاق: ديوان الجرح والكلمات، دار التنوير، الجزائر، 2008م، ص41.

[20] أحمد قنشوبة: البناء الفنّي في القصيدة الشعبية الجزائرية، دار سنجاق الدين للكتاب، الجزائر، ص430.

[21] ينظر حسن الشرقاوي: المرجع السابق، ص97.

[22] أحمد قنشوبة: المرجع السابق، ص436-437-438.

[23] عبد الله دحية: تجلّيات الحس الوطني في الشعر الشعبي : منطقة بوسعادة نموذجا (جمع ودراسة)، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2005م، ص53.

[24] الرسالة القشيرية: مصدر سابق، ص295.

[25] أحمد قنشوبة: المرجع السابق، ص504.

[26] ينظر حسن الشرقاوي: المرجع السابق،ص181.

[27] أحمد قنشوبة: المرجع السابق، ص528-529.

6. قائمة المراجع:

* القرآن الكريم

- أحمد بقار: الرمز الصوفي عند عبد الله حمادي، مجلة علوم اللغة العربية، ع6، كلية الآداب واللغات، جامعة الوادي، الجزائر، 2014.
- أحمد بن علي القلقشندي (ت 821هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت.

- أحمد قنشوبة: البناء الفنّي في القصيدة الشعبية الجزائرية، دار سنجاق الدين للكتاب، الجزائر، دت.
- أحمد مطلوب: معجم النقد العربي القديم، ج1، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، العراق، 1989م.
- حسن الشرقاوي: معجم ألفاظ الصّوفية، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر، 1987م.
- سعاد الحكيم: المعجم الصوفي، درندرة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1981م.
- عبد القادر شارفي: لغة الخطاب الصّوفي الإشارة والرمز لدى محيي الدين بن عربي، من الكتاب الجماعي اللغة والمعنى مقاربات في فلسفة اللغة، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2010م.
- عبد الكريم أبو القاسم القشيري (ت465هـ): الرسالة القشيرية، مطابع مؤسسة دار الشعب، مصر، 1989م.
- عبد الله حمادي: ديوان تخرب العشق يا ليلى، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1982م.
- عبد الله دحية: تجلّيات الحس الوطني في الشعر الشعبي : منطقة بوسعادة نموذجا (جمع ودراسة)، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2005م.
- فاتح علاق: ديوان الجرح والكلمات، دار التنوير، الجزائر، 2008م.
- محمد بن علي التهانوي (ت 1158هـ): موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم،ج2، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، بيروت،1996م.
- محمد بن علي الشريف الجرجاني(ت816هـ) : التعريفات، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1983م.
- مصطفى الغماري: ديوان أسرار الغربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1982م.
- ياسين بن عبيد:
  - ديوان الوهج العذري، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1995م.
  - ديوان حدائق المعنى: دار الأوطان، الجزائر، دت.
- عبد الكريم السوني: المصطلح الصوفي: أصول وتجليات، مقال من صفحة الرابطة المحمّدية للعلماء. يوم 2023/11/17م على الساعة 18:42على الرابط: https://www.arrabita.ma